عقل مُفرَّغ

رنا عمرو

قصة

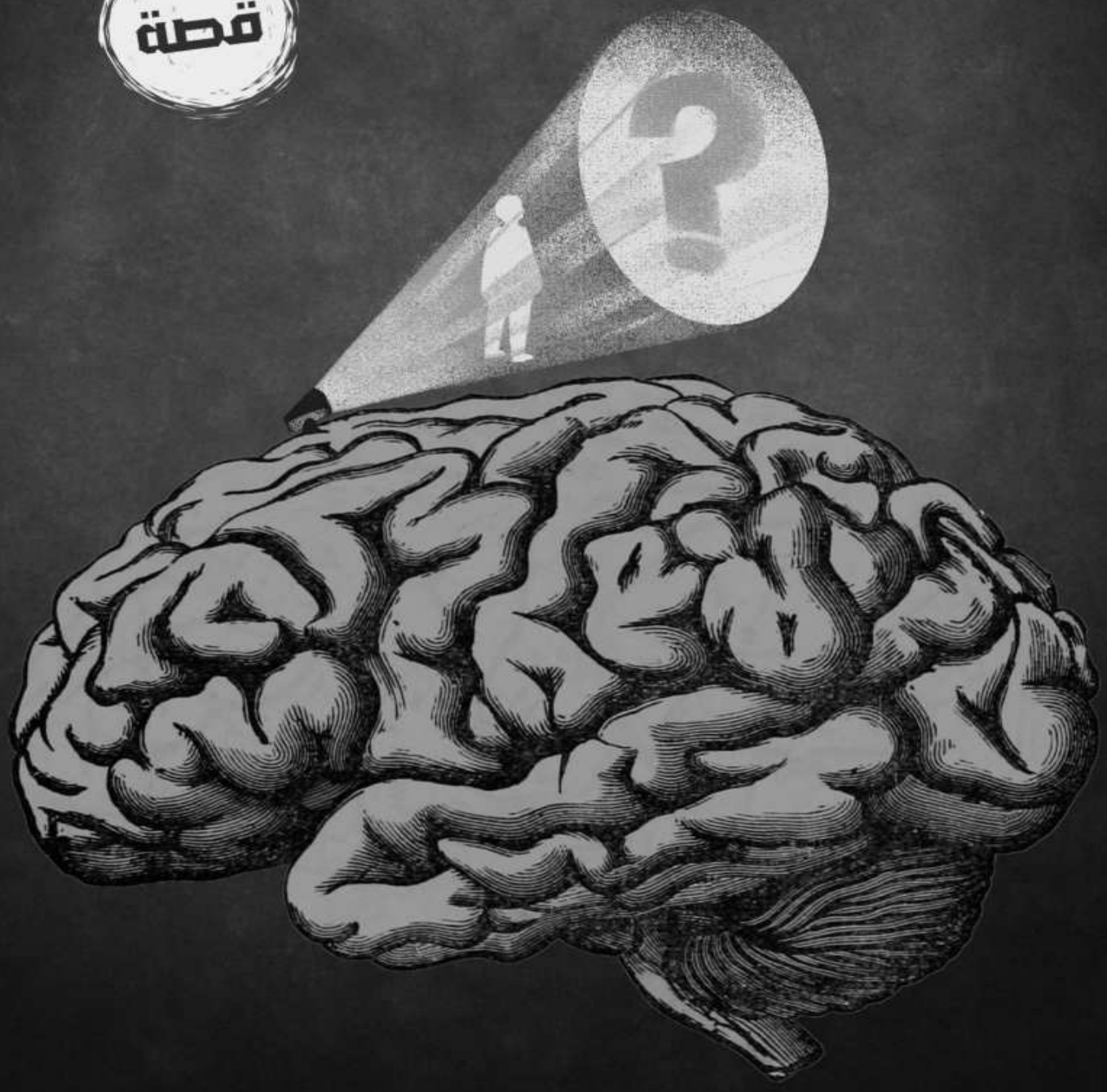

هل ابتلعني الظلام... أم إنه في داخلي؟

صوت أنفاسي يعلو، خطواتي تتباطأ، والظلام يشتد قتامة. توقفت ونظرت حولي فما وجدت إلا الفراغ، كأنها صحراء بلا ضياء، وأنا تائه فيها، بلا شمس تضمني ولا مرشد يدلني.

سمعت صوت صرير باب يُفتح، وضوء خافت يطل من خلفه استحياءً، توجهت إليه، كان بابًا حديديًا كبيرًا ذو قفل ضخم نال منه الصدأ، حاولت فتحه ونجحت بعد محاولات عدة، وحين ولجته، غُلِق بقوة .

دخلت فكانت غرفة واسعة، بها ثلاثة مصابيح تضيء وتنطفئ برتابة، تأملت أركان الغرفة، كانت الجدران باهتة سقط عنها طلاؤها، معلق على إحداها ساعة عتيقة كبيرة الحجم، تدق بوتيرة بطيئة جعلتني أشعر بالتوتر، وكان هناك أريكة أسفل الساعة، ممزقة يغطيها الغبار الذي انتشر في كل مكان، وعلى الأرض تناثرت الكثير من الأوراق بعشوائية، اقتربت من بعضها أمسكها وأقربها لعينيّ لأتمكن من قراءتها في هذا الضوء الشحيح ..

"أمي أريد أن أصبح رائد فضاء، سوف أشاهد القمر عن قرب، سأخبره أنكِ أجمل منه"

"سأملك مالًا كثيرًا لأساعد الفقراء، وسأقضي على الأشرار"

"لقد حصلت على جميع درجاتي كاملة! "

"وجدت هذه القطة في الشارع، كانت حزينة وجائعة، هل يمكنني إطعامها؟"

"لا أريد رؤيتك مرة أخرى، من اليوم أنت لست بصديقي!"

"هدف.. هدف، فزت !"

"- هل تخاصمت مع صديقك؟

- نعم.

- لِمَ؟

- لأنه حقير !"

"حصلت على تقدير امتياز !"

"لا أجد عملًا، لا أحد يقبلني" .

" - أعتذر منك.

- سامحتك. "

"لقد ضاع حلمي، وضِعت معه. "

ما هذا؟ أنا لا أفهم، أظن أن هذه رواية ما، فقد كان الكلام مكتوبًا بطريقة روائية، بتفاصيل كثيرة، وحوارات عديدة، لكن لماذا الأوراق متناثرة بهذا الشكل؟ هل يئِس منها كاتبها؟

أرى أنه كاتب بارع، فقد تفاعلت مع حروفه بشدة، فشعرت بالفرح مرة، وبالحزن مرات، آلمني قلبي، حتى أن عيني أدمعت .

ألقيت آخر ورقة من يدي حين وجدت الباب يفتح بمفرده مرة أخرى، وبدأت الأوراق تتطاير حولي، والمصابيح انطفأت، والساعة سقطت مصدرة صوت مخيف من تكسّر زجاجها، حتى أنني شعرت حينها أن الزمن توقف، أسرعت وخرجت، فغُلِق الباب بقوة أكبر من سابقه، وكأن الغرفة تلفظني منها .

انتقلت بنظراتي حولي، كنت قلقًا مرتعبًا، أتلفت ولا أدري أين أنا، وكيف جئت إلى هنا، هل هذا حلم؟ وإن كان حلمًا، فمتى أستيقظ منه؟

فجأة وجدت الكثير من الأبواب تفتح على مصارعيها، مئات الأبواب على يميني ويساري، وعلى كل باب كانت هناك لافتة، استطاعت عيني قراءة البعض منها: حلم- لعبة- مفاجأة- بكاء- خوف- بسمة.

اقتربت بخوف من أول باب جهة اليمين، والذي كانت لافتته "خذلان" وقد هالني ما رأيت!

وكأن الباب فُتح على عالمٍ آخر، فناء مدرسة فسيح، وتحت ظل شجرة يجلس طفل صغير، يضع وجهه بين يديه ويبكي، أحزنني بكاءه، فاقتربت منه رغم خوفي، وضعت يدي على كتفه أُلفِت انتباهه، فرفع رأسه إليّ ينظر بعينين حمراوتين من شدة البكاء، آلمتني نظرته، شعرت به يؤنبني، سألته :

- لماذا تبكي؟

لم يرد، ولكنه استقام وأشار بإصبعه ناحية قلبي، فوجدته يؤلمني، مسحت عليه بيدي، فوجدت الألم يزداد، ثم انتقل إلي رأسي، صرخت بقوة، ثم وقعت مغشيًا عليّ.

أفقت صارخًا واضعًا يدي على قلبي الذي ما زال يؤلمني، مرت عليّ لحظات نسيت فيها أين ومن أنا، ثم ضحكت بسخرية ففي الحقيقة أنا لا أعرف جواب سؤالي عن هويتي، بدأت أسترجع ما حدث منذ أسبوعين، حين استيقظت ووجدت نفسي في غرفة بيضاء، وأجهزة كثيرة متصلة بجسدي، أدركت أنني في مشفى ما، ولكن لما رأسي يؤلمني لهذه الدرجة؟

لم تمر بضع دقائق حتى دخل طبيب وممرض إلى الغرفة، فحصني ثم أخبرني أنني أتحسن، سألته عما حدث لي، فأجاب:

- لقد تعرضتَ لحادث سير، صدمتك سيارة، كان الخطأ من عندك فأنت من ظهرت أمامها فجأة، لكن لا تقلق أنت بخير الآن .

نظرت إليه مبهمًا، لا أشعر بشيء إلا ألم رأسي، كدت أخبره فوجدته يستكمل حديثه قائلًا:

- أعتذر منك ولكن يجب عليّ إخبارك بشيء مهم.

هناك احتمال لإصابتك بفقد مؤقت في الذاكرة، دعني أسألك، هل تذكر اسمك؟

اسمي؟ لا أدري، ما كنت أذكر شيئًا، فقط تذكرت اللحظة التي صدمتني بها السيارة، فرأيت تجمهر الناس حولي، قبل أن أفقد الوعي .

لم أرد، كنت مصدومًا، وخاصة بعدما أخبرني أنهم لم يجدوا معي شيئًا يحدد هويتي، كيف؟

- ماذا تحب أن نناديك؟

سألني الطبيب .

أحقًا لا أذكر من أنا؟

صرت بلا اسم، ولا هوية لشخص لا يُعرَف له اسمًا، أصبحت... كالسراب .

وجدتني أردد :

- سراب .

تعجب مني ولكنه لم يعلق، ربما رآني مجنونًا، أو ربما أثر الحادث على رأسي، المهم أنه هز رأسه بالموافقة وغادر .

وفي المساء أتى إليّ مرة أخرى وأخبرني أن بإمكاني الإقامة في المشفى لحين تذكري أي شيء، أو لحين أن يسأل أحد عني، والشرطة تتابع الأمر وتبحث عمن يعرفني، ولكن ماذا إن كنت وحيدًا؟

****

عدت من تذكري إلى واقعي من جديد، حيث أجلس على فراش الغرفة التي باتت تمثل مسكني،

متهدل الكتفين،

مهمومًا،

من نفسيَ مخذولَا.

فكرت فيما رأيت، هل يكون حلمًا؟ أم عساه كابوسًا؟ ولكنه كان واقعيًا للحد الذي جعل قلبي يؤلمني إلى الآن، فلما؟ وما علاقتي بما رأيت؟ تذكرت الطفل الصغير، من هو؟ وما كنه الأوراق التي وجدتها؟ والحكاية التي ترويها؟ كانت حكاية محزنة لحياة شخص بائس، فمن يكون؟ هل.. هل من الممكن أن يكون أنا؟

*****

وحيد رغم الزحام حولي.

جاء الليل، وجاءت معه مخاوفي، صرت أخشى الهدوء.. والأمل .

الأمل الذي يُبقِي الإنسان على قيد الحياة، بات يرعبني. أخشى أن أأمل، ثم أسقط في بئر عميق، ويكون سبب سقوطي هو أملي .

توجهت للفراش أجلس عليه، لا أدري كيف لكنني بدأت في النوم بلا شعور مني، وقبل أن أغمض عيني للمرة الأخيرة، رأيت طفلًا صغيرًا في ركن الغرفة أمامي، ثم بدأ يقترب مني .

*****

ذات الغرفة، بكل ما فيها، لم يتغير شيئًا، عدا أن الباب كان مفتوحًا هذه المرة، الأوراق ما زالت متناثرة، وقد ازداد الغبار الذي يغلف كل شيء .

خرجت منها وأنا أتفقد المكان، ذات الهدوء والظلام، لم يتغير شيئًا .

وجدت جهة اليسار بابًا يئِن، كان يُفتَح ببطئ، سرت إليه حذرًا، ونظرت داخله بترقب .

صالة كبيرة، ذات عدة طاولات خشبية، عليها أدوات مختلفة من ميكروسكوبات وأنابيب وموازين صغيرة، أظن أنها معمل ما، وربما في جامعة، فالطلاب هنا يبدون بالغين .

ارتفع صوت أحدهم فجأة من آخر المعمل، كان نقاشًا حادًا بين اثنين يرتديان معاطف بيضاء، سمعت أحدهما يقول:

- لا تفعل إلا ما اتفقنا عليه منذ البداية، نحن لا ندري إن أضفنا هذا المركب ماذا سيحدث، ربما نعرض مشروعنا كله للخطر بسبب عنادك!

ورد عليه الآخر: -الذي كان معطيًا ظهره لي وهو يتحدث-

- ثق بي، أنا متأكد مما سأفعل، لن نكون مجرد منفذين للتجربة، ربما توصلنا لشيء جديد .

- هذا غباء، إن فشلنا تلك المرة أيضًا لن نجد وقتًا لإعادة التجربة .

- ثق بي.

- أنا لا أثق بك !

قالها بصراخ ثم أكمل:

- لا يجب أن نثبت كل مرة أنك أذكى منا جميعًا، أنت أناني .

انتهى من كلماته وغادر تاركًا الآخر مصدومًا، الآخر الذي التفت ناحيتي فوجدت أنه أنا !

****

فجأة اختفى كل شيء، ووجدت باب الغرفة يُغلق، الظلام يحيط بي من جديد، لا شعاع نور واحد يطمئنني، ما هذا؟ لقد وجدتني بالداخل، من الذي صرخ بي؟ أنا خائف، لماذا لا أستطيع الجلوس في مكانٍ ما وأبكي بهدوء؟ لماذا لا يمكنني الإنهيار؟ لقد تغيرت حياتي فجأة، أنا حتى لا أعلم ما كنت عليه قبل

الحادث وفقدي للذاكرة، وما يحدث معي الآن غريب، ما كل هذا الذي أراه؟ هل أنا هنا داخلي؟ داخل عقلي؟ هل أحاول تذكيري بمن أنا؟ وكيف ذلك؟ أكاد أُجَن .

التفتتُّ حينما سمعت صوت خطوات خلفي، كان الطفل الصغير، رأيته يسير مقتربًا مني، فرحت، ربما يجيب عن بعض أسئلتي، بادرته :

- يا صغير! ألا تخبرني أين نحن؟

قال وهو ينظر مباشرة لعيني :

- أنت تعلم .

أنا؟ أنا لا أعرف شيئًا، ولا أفهم ما أنا به، سألته :

- حسنًا ما اسمك؟

- أنت تعلم .

- مهلًا يا صغير، إن كنت أعلم فلمَ أسألك؟

- إنك تعلم كل شيء، فقط.. أنت لا تريد .

قالها وغادر، ووقفت أنا أفكر في كلماته، حتى استيقظت .

****

هل يأتي أحدهم ليسأل عني؟ أم أني سأظل هنا حتى أموت، أو أُطرَد، هل سأتحمل البقاء هنا أصلًا؟ أنا لست عاجزًا، يمكنني الإعتماد على نفسي والخروج للبحث عمن يعرفني، أو للبحث.. عمن أنا .

ربما أكون مهندسًا فذًا، وربما أكون عالمًا، إن نجحت تلك التجربة معي إذن فبالتأكيد أصبحت ذا مكانة مرموقة،

مهلًا، أقلت تجربتي؟ وأصبحت؟ هل هذا يعني أن ما أراه هو.. ذكراي؟ أدَخَلتُ عقلي؟

هذا عصي على الفهم، لكنه مبهر كذلك، ربما يساعدني ذلك على تذكر كل شيء.

والطفل؟ من يكون؟

تذكرت كلماته، قال أنني أعرف من هو وأين نحن، إن كنت جاوبت على السؤال الثاني، فهل من الممكن أن يكون هذا الطفل هو أنا؟

حسنًا، في المرة القادمة سأسأله مجددًا عن اسمه، أو.. اسمنا، وبعدها أبحث عني لعلي أجدني.

فمتى تكون المرة القادمة؟

متى؟

متى؟

****

وللمرآة أنظر، فلا أراني..

ربما،

وجهًا آخر لا أعرفه،

يتسلل الكلل إلى ملامحه، وينبعث من عينيه الألم،

ربما.. لست أنا .

مر اليوم ببطئ شديد، أردته أن يمر بسرعة، ليأتي الليل، ولأذهب في رحلة جديدة داخل عقلي، ليتني أعرف عنه أي شيء .

نمت مجددًا، واستيقظت في نفس الغرفة، بت أعرف المكان جيدًا، خرجت وغُلق الباب، نظرت لأعرف أي بابٍ سيُفتح هذه المرة، سرت بضع خطوات للأمام، قبل أن أجد على يساري بابًا يئن، توجهت نحوه بسرعة ووقفت أشاهد .

فتى يافع يجلس على الأرض، أمامه سجادة صلاة، ويبدو أنه أنهى صلاته الآن، يضم رجليه إلى صدره، ويضع رأسه بينهما، ويبكي بصوت مرتفع .

كدت أدخل، ولكنني تذكرت أن ذلك الفتى ربما يكون أنا كالمرة الفائتة، داعبت الفكرة عقلي، وجدت أنها مرعبة، ورغم ذلك توجهت نحوه أُبعِد الخوف عني .

أصدرت صوتًا ليُلفت انتباهه نحوي، لكنه لم يفعل شيئًا يوحي بأنه قد سمعني، جربت أن أضع يدي على كتفه، فمرت يدي خلاله كالسراب .

تأكدت أنه لا يمكنه رؤيتي، اطمأننت بعض الشيء، بعد عدة دقائق قضاها الفتى في البكاء قام ومسح دموعه، ذهب ونظر لنفسه في مرآة كانت في ركن الغرفة، ركّز ناظريه على عينِه الحمراء، عدّل شعره المبعثر، ابتسم بسمة صغيرة، ثم احتضن نفسه بيديه.

في تلك اللحظة وجدت خاطرةً تمر على عقلي، كذكرى تأتي من مكان بعيد، لمعت بعض الكلمات داخلي، رددت :

ربما إن استطعت الوصول حتى قلبي وطلبه في عناقٍ لفعلت، لن أطلق سراحه من بين أضلعي ريثما ينسى ما تألم،

ربما حينها يكف عن البكاء،

ربما ..

حينها،

أكون بخير .

لا أعرف كيف قلت تلك الكلمات، رددتها كأني أحفظها عن ظهر قلب، لن أفكر كثيرًا، فكثير مما يحدث لي غريب، ولا يجب أن يكون لكل شيء تفسير، ولكن، هل أرضى أنا بجهلي؟

نسيت الفتى وشردت مع نفسي، نظرت فوجدته منغمسًا في قراءة كتاب ما، استمررت في النظر إليه، أدرس ملامحه التي تشبهني، وإن كانت خاصته أكثر إنهاكًا .

شعرت بالتعب، فجلست على كرسي قريب مني، وعجبًا لم يتخطاه جسدي كما فعل مع الفتى .

نظرت إليه وهو منهمك في القراءة،

ما الذي حدث له ليبكي بهذا الشكل؟ هل فقد حلمه؟ هل فشل في دراسته؟ هل خُذِل؟ ما الذي حالَ زهرة شبابه إلى رماد محترق؟

أتحدث عنه وكأني لست هو، أتساءل كيف كانت حياتي قبلًا، من كنت ؟ وماذا أردت؟ وماذا فعلت؟ وكيف سقطت؟ ومتى قُمت؟ وهل نجحت؟

أنا حائر جدًا، لا أدري ماذا أفعل، ماضٍ غامض وحاضر أليم ومستقبل مجهول .

أفكر إن كنت سأستعيد ذاكرتي أم لا، وهل حياتي القديمة تستحق مني أن أتذكرها؟ ربما تلك فرصة لأهرب وأبدأ من جديد، نعم، يمكنني البدء من جديد، يمكنني أن أسطر حياة جديدة، لكن مالي حزين؟ مالي أراني مشتاقًا لماضيّ؟ هل لتلك الدرجة، يحب المرء جلاده؟

لا أدري كم مر من الوقت وأنا شارد، ضحكت ساخرًا، فقد اختفى الفتى وأنا مازلت جالسًا، يبدو أن وقت رحيلي قد حان، قمت وخرجت من الباب وأنا أنظر خلفي، أُودِّع ذكرى الضيف المنسيّ .

****

هنيهة واستيقظت، وهذه المرة لن أفكر كثيرًا، كفى تفكيرًا، ليحدث ما سيحدث، ولينتهي الأمر، فقد مللت .

قررت النزول والسير قليلًا في هذا الفلق الباعث للأمل، ليتني أأمل .

سرت بين الأشجار المزهرة وزقزقة العصافير، تعجبني الطيور حين تطير، تزيل عن كاهليها الهم، أتساءل كيف ترى الحياة من الأعلى، هل تختلف عما نراه؟

كنت أظن أنني الوحيد من جاء يبتغي بعض الأمل، فقد وجدت فتاة تجلس أسفل شجرة تُطعِم قطة صغيرة، توجهت نحوها .

- صباح الخير .

نظرت إليّ وردت تحيتي، سألتها إن كان بإمكاني الوقوف لبعض الوقت، لم ترفض، وأنا وجدتها فرصة للحديث مع بشريّ، فمنذ مجيئي لم أرى أحدًا غير الطبيب المشرف عليّ وطاقم الممرضين .

- بم أنت مريض؟

سألت.

- يقولون أني فاقد للذاكرة .

- وأنت؟ ماذا تقول؟

- لا أعلم، لكنني أنتظر حتى تعود لي ذاكرتي .

داعبت القطة وقالت :

- أنت محظوظ، بعض الأشخاص يبحثون عن فرصة لنسيان كل شيء، والبدء من جديد .

- لا أعتقد أنه شيء مجدٍ، فمهما حاولت الهروب مما يؤلمك خلف قناع النسيان الكاذب، سيظل ألمك داخلك دومًا، لن يتخلى عنك، وإن تظاهرت بعكس ذلك .

- أحترم رأيك، ربما تكون على حق .

صمتنا لبضع دقائق، لم أرد الاستمرار في هذا الصمت، أريد التحدث، لاحظت القلادة التي ترتديها، قلادة فضيّة اللون تأخذ شكل شمس صغيرة،

أخبرتها :

- قلادتك جميلة .

- أشكرك .

أكملت بعدما ابتسمت بسمة صغيرة :

- حين أهدتني أمي إياها أخبرتني أن الشمس تشرق بداخل كل واحد منا، فندفئ بضوئها قلوب من نحب، لكن أعتقد أن هذا ليس حقيقيًا، فجميعنا منطفئون .

- ولما في نظرك؟ أعني.. لما يعيش الجميع في الظلام، رغم شروق الشمس كل يوم؟

نظرت إليّ بسخرية، قالت :

- إنها الحياة. أحيانًا أرى أنه من الطبيعي أن نتألم، فتلك حياة في النهاية، وغدًا نموت وينتهي كل هذا، نحن نُعوَّض في الآخرة، ليس هنا .

أومأت لها، ثم استأذنت منها قاصدًا الصعود لغرفتي، نحو وحدتي من جديد، وداخلي يفكر في هذا الحوار القصير .

على كلٍ، دخلت الغرفة وأغلفت الباب خلفي، قررت أن أغمض عيني وأحاول النوم، ربما تأتني الرحلة لعقلي باكرًا هذه المرة، لما لا !

****

تلك المرة ستكون مختلفة، لن أخاف شيئًا، سأحاول الفهم وسأبحث عن ذاتي حتى أجدها، توجهت نحو الشرفة أغلق بابها ليعم الظلام فأستطيع النوم بسهولة .

توقعت رؤية الطفل يقترب مني كما حدث سابقًا، لكنه لم يأتي، ورغم أنني أخذت بعض الوقت لأنام، إلا أنني نمت في النهاية.

فتحت عيني لأجدني في الغرفة المعهودة، لاحظت أن الغبار قل عن كل مرة، ربما يدل ذلك على شيء ما،

تجاهلت كل شيء وتوجهت مباشرة نحو الخارج أبحث عن الباب الذي سيُفتَح هذه المرة،

رأيت الطفل الصغير يُلوّح لي من بعيد، ذهبت إليه مسرعًا، دخل آخر غرفة جهة اليمين، دخلت وراءه، وقبل ذلك نظرت للافتة على الباب، قرأت ما دُوِّن عليها، فوجدته "حمل ثقيل" .

والآن سأشير للفتى الذي يشبهني باسم سراب الآخر، وأنا أسمى سرابًا، لحين معرفتي لاسمي الحقيقيّ .

يجلس سراب الآخر على كرسي مكتبه، وأمامه عدة كتب أعتقد أنه يدرس منها، جلست على كرسي قريب أراقبه .

يحني ظهره بقوة، وكأنه يحمل هم العالم على عاتقه، يذاكر بجدٍ، يكتب ملاحظاته، يشرح لنفسه بصوت عالٍ، يحل واجباته. استمر في استذكاره لوقت طويل، وأنا ما زلت أراقب بشغفٍ، أعجبني ما يفعل، توقعت أن يكون فتًى ذكي مجتهد يبتغي تحقيق أهداف سامية، أحسست بالأمل، هكذا أكون صاحبَ حلم أسعى إليه، هل يا ترى وصلت؟

- لا، هذا لم يحدث .

نظرت خلفي فوجدت الطفل سراب، تبًا لقد أخافني، لم أتوقع مجيئه الآن، تذكرت كلمته، لم يحدث؟

سألته:

- لما تقول ذلك؟ ماذا حدث؟

نظر في عينيّ كالعادة، هذه النظرة تصيبني بالتوتر، قال :

- توالت إخفاقاتك، كلما كدت تصل يحدث شيء ما يعيقك، حتى يئِست، وأدركت -كذبًا- أنك تحلم بأشياء أكبر منك، حلمت وحلمت حتى أصبحت أحلامك تصل للسماء، وبدلًا من أن ييسر ذلك طريقك ويعينك للوصول، أثقلت أحلامك كاهليك .

صُدِمت، رددت :

- لكن هذا ليس صحيحًا، الأحلام نجوم الحياة، حتى ولو لم تتحقق، كفى أنها أنارت لنا الطريق لبعض الوقت، كفى أنها جعلت لحياتنا قيمة، ومن الأساس، من حَلُم مرة يستطيع أن يحلم ألف مرة، إن لم يجد حلمًا يناسبه؛ فليجد لنفسه غيره .

سَخِر :

- ليتك قلت لنفسك ذلك .

تعجبت، ما هذا الذي يحدث؟ ما الذي فعلته لنفسي؟ وكيف تخليت عني؟ لا، ربما هذا ليس صحيحًا، ربما كل هذا كابوسًا ينتظر مني الإستيقاظ، بالتأكيد سراب هذا ليس أنا، نعم، هذا الذي يمزق الأوراق ويصرخ بجنون ليس أنا، من يكسر زجاج المرآة الآن ليس أنا، من تنزف يداه ليس أنا، من ضم إليه ركبتيه واحتضن نفسه ليس أنا .

نعم.. مستحيل! أنا الآن بخير، وإن لم أكن أتذكر شيئًا، بالتأكيد أنا أفضل من هذا الذي أراه .

مر الكثير من الوقت بدون أن أشعر، نظرت لسراب الآخر أرى ما يفعل، فوجدته منهمكًا في كتابة شيء ما، اقتربت منه ببطئ، أراقب ما تخطه يداه..

" أمام الجميع كان صامدًا، كمحارب نَاضَل وحده ألف عدو ولم ينهزم، اخترقت سيوفهم جسده ولم يتألم، تكالبوا عليه ولم يفِرّ،

وعند اختلائه بنفسه استسلم في أول معركة أمام أول عدو، سمح لجروحه تنزف، وترك همومه تفعل الأفاعيل بقلبه،

أحنى ظهره، جثا على ركبتيه... وبكى . "

*****

الظلام الأخير.

تحركت بهدوء خارج الغرفة، بعدما بدأ كل شيء حولي يتلاشى، فهمت أن وقتي هنا انتهى.

غُلق الباب كالعادة، الظلام يشتد في كل مرة، ككرة صغيرة يُضغط عليها بقوة، فتنكمش حتى تكاد تنفجر، وحينها ستنجو، وإن كانت ستختفي.

وأنا هنا، وفي هذا الظلام، أنتظر نجاتي، وأرجو ألا يكون في قدري اختفاء.

سرت ببطء أنظر للأبواب حولي، الأبواب التي بدأت تُفتح بهدوء، لم أتفاجأ، أدركت أنها النهاية، فاستمررت في السير بينها، أشاهد كل ما يمر داخلها، حتى أن ذاكرتي بدأت تعود لي شيئًا فشيء، وياليتها لم تفعل .

هنا كنت طفلًا أحلم للصعود للقمر، ليتني ظللت أرجو العلا، ليتني لم أحفر حفرة في الأرض بيدي، ووضعتني داخلها .

وهنا كان أول نجاح صغير لي، في العام الأول لي في المدرسة، حين حصلت على المركز الأول في الإمتحانات النهائية، كنت مبتسمًا آملًا، لم أكن أدرك أن هذه البسمة لن تستمر.

وهنا أول هزيمة لي، عندما كنت أبكي في المدرسة، بسبب مضايقة بعض الأصدقاء، لا يمكنني لومي، فحينها كنت صغيرًا غير قادر على فهم ما يدعى بالتنمر وكيف أواجهه .

وبعدها توالت الإخفاقات، وبعض النجاحات، ابتسمت مرة، وبكيت مرات .

خُذِلت وتألمت، مني ومن غيري، رأيت الجميع يبتعد عني، وأدركت حقيقة مُرة حينما أنكرتني أحلامي، ونبذني أملي، إن كانت القشة لا تنقذ الغريق؟ فما فائدة التمسك بها؟ أهي غريزة البقاء؟ أم محاولة الشعور بالأمل للمرة الأخيرة؟

هذا يجعلني أفكر أن الأمل قاتل في بعض الأحيان، لا يجب أن تتأمل كثيرًا، لا يجب أن تبني سلم بقدم واحدة، وتظن أنك يمكنك الصعود عليه، هذا حمق .

علمت أنني كنت أحب الكتابة، اتخذتها وسيلة لرثاء نفسي، أردت أن أترك أثر ورائي يروي تفاصيل قصتي،

لقد كان هناك يومًا ما وعلى هذه الأرض، فتى صغير، توغل في بحر الحياة، وتلاطمته الأمواج يمينًا ويسارًا بقسوة، حاول كثيرًا أن يتحكم في سفينته، وللصدق، كان ينجح في بعض المرات، ولكن بعد كل مرة كان يُفاجأ بعاصفة شديدة، تعيده للبداية من جديد، حتى ألقى مجاديفه، وعلَّق شراعه، وترك الأمواج تُبحِر به إلى حيث شاءت، وصار يهيم على وجهه، بغير هدى .

سمعت صوت خطوات صغيرة خلفي، توقعت أن يكون الطفل سراب، وقد صدق حدسي،

وجدته يقترب مني حتى وقف أمامي، ونظر مطولًا لعيني، وبلا حديث لسان، كنا نعاتب بعضنا، سألته وسألني: لماذا؟

أمسك يدي بيده الصغيرة، اقشعر جسدي، أنا.. أتمسك بي .

سار وسرت معه حتى آخر الممر، نحو الغرفة الأخيرة، والمرحلة الأخيرة، أنا متأكد من ذلك .

فَتَح الباب، فالتقطت عيني منظر بديع من التقاء الأزرقين، البحر والسماء .

شاطئ هادئ، لا يوجد أحد غيرنا بالطبع، ومع نسمات الهواء التي تلفح وجوهنا، وصوت تلاطم الأمواج، جلسنا على صخور أمام البحر، ساد الصمت بيننا لدقائق، قبل أن يبدأ هو في الحديث:

- من أين تريد أن تبدأ؟

نظرت إليه شاردًا :

- من البداية، من البداية تمامًا، منذ كنت طفلًا، لا يهمه من الحياة إلا لهوها .

- توقف عن قول مثل هذه التراهات، أنت لست ضعيفًا لتأمل في أيام لم يكن لك فيها من الحياة شيء .

ابتسمت بسمة صغيرة :

- هذا لن يغير شيئًا على كل حال .

- وماذا الذي تريده أن يتغير؟

- كل شيء، أريد أن يتغير كل شيء، أنا لا أتحمل هذه الحياة، ما حدث يفوق تحملي بكثير .

- كذب! ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ما دام الله وضعك في شيء ما، إذن فأنت جدير به، ولا عزاء لمن يقول غير ذلك .

- ونعم بالله، ولكن أنا.. أتألم حقًا .

- هل أسألك سؤالًا؟

- اسأل .

- بماذا شعرت عندما رأيتني؟ ثم رأيت ذكراك كلها تمر أمامك؟ والأهم، ما رأيك في نفسك الأخرى التي رأيتها؟

صمت، صمت هو جميع ما رددت به، فكرت كثيرًا قبل الرد، أدرك أن سراب الصغير هزمني حينما سألني هذا السؤال، هو يعرف ما يفعل جيدًا .

قلت :

- بالنسبة إليك، لا أستطيع لومك حينما رأيتك تبكي، التنمر شيء مقزز، وأنت كنت طفلًا، لم تفهم التعامل معه، ولكن ما حجتك عندما كبرت؟ وأدركت نفسك الحقيقية؟ هل اخترت التخطي والاستمرار في اكتشاف نفسك المذهلة، أم ظللت نفس الطفل الصغير الذي يبكي تحت الشجرة؟ الخيار كان لك .

- صحيح، حسنًا وبالنسبة لسراب الآخر؟

- سراب؟ لا أعلم ما فعله بنفسه، لقد كان أمامه الكثير من الحلول، لكنه لم يبصرها .

مثلًا، أحلامه، من قال أن الفشل هو ألا تصل لما حلمت به؟ هذا ليس صحيحًا، الفشل هو أن تتوقف عن الحلم أبد الدهر، أن تتوقف عن الركض وراء

نفسك لإدراكها، هذا هو الفشل الحقيقي، ولعلمك، من حَلُم مرة يستطيع أن يحلم ألف مرة، فقط إن أراد .

- كلام جميل، وماذا عن وحدته؟

- سراب لم يكن وحيدًا أبدًا، هو فقط أعمى عيونه عن الحقيقة، بأن ربط سعادته بوجود الكثير حوله، ونسي أن الكافيَ الجبَّار معه، يغنيه عمن سواه .

- والصديق الذي خذله؟

- لن أقول إن خذلان الأصدقاء شيء سهل، لكنه كذلك فرصة لتعلم ما الذي ينقصك وجعلك تحتاج لشخص آخر، لا أقصد أنك يجب أن تكفي نفسك في جميع جوانبها وألا تشارك حياتك مع أحد، بالطبع لا، جميعنا نحتاج الآخرين في حياتنا، لنتشارك همومنا ونجاحنا، ونبحث عن حلول لكل ما يقابلنا، المشاعر - الجيدة والسيئة على سواء- ليست ذات قيمة إلا لشعورنا بها مع شخص آخر، هنا تظهر قيمتها الحقيقة، وحتى يظهر ذلك الآخر، تعوّد أن تكون لنفسك كل شيء .

- أتفق معك، وماذا عن رفض سراب للشعور بالأمل مرة أخرى، وخوفه الكبير من مستقبله؟

- أنا معه تمامًا في هذا الشعور، أنا أيضًا أخاف من الأمل، أخاف أن أأمل في شيء ما بشدة، أرجوه بشدة حتى يُبنى مستقبلي عليه، ولكنه في النهاية لا يأتي، فأكون قد خسرت كل شيء .

- لكنك لم تعدني بذلك .

تعجبت :

- بما وعدتك يا صغير؟

نظر إلي بغضب :

- هل نسيت؟ ألم تعدني بأن تصبح بطلًا لا يخاف شيئًا؟ تحمي نفسك والآخرين من الأشرار؟ أن تصبح عالمًا كبيرًا؟ وأن تبني مكعبات حياتك في كل مرة تُهدم فيها؟ فلمَ أخلفت وعدك معي الآن؟

- لَم أخلف وعدي لك، لقد أجبرتني الحياة على ذلك، أقسم لك أنني حاولت كثيرًا، لكنني لم أستطع .

- لو كنت حاولت فعلًا لكنت وصلت، أنت فقط حاولت أن تلقي حِملك بأي طريقة كانت، لم ترد الوصول، بل أردت الهروب من الشعور بالذنب الذي سيحاوطك إن لم تفعل، أنت دخلت قعر مظلم، وظللت تتخبط فيه بلا هوادة، ورغم أنك تحمل سراجًا، إلا أنك أعميت عينك عنه .

- وما هو هذا السراج؟

- مواجهة نفسك، جرب أن تتحرر من كل قيود مخاوفك، أن تخرج مرة من قوقعتك التي أجبرت نفسك على البقاء داخلها، واجه نفسك بالحقائق التي تخاف أن تفكر فيها، حاول أن تخلع ثياب خوفك واعتيادك الكاذب، جرب أن تمسك سيفًا وتنزل حربًا تكن فيها المنتصر، وإن كنت بمفردك، وإن هزمت، فأعطِ نفسك فرصة أخرى، وإن سقطت فيها فاعقبها بفرص أكثر، حتى تنجو، أو تموت، فتكون مت في سبيل إيجاد نفسك.

نظرت للبحر أمامي أفكر في حديثه، هذا الطفل معه كل الحق، فعلًا، لما لا أجرب؟

- والسؤال الأخير، ماذا عن ذكراك؟ ماذا شعرت حينما رأيت كل ما حدث لك يُعاد أمامك؟

- في البداية أيها الطفل، أريد أن أعترف اعترافًا، لقد أدركت أنني لم أنسى شيئًا قط، فقط أنا اتخذت الهروب سبيلًا لي، وهذا خطأ .

وبالنسبة إلى شعوري عندما رأيت ذكرياتي؟ هذا شعور لا يمكن وصفه، مزيج بين الألم والفرح والخوف، ألم من رؤية أي سيء حدث لي مسبقًا، وخوف من إعادة التجربة مرة أخرى، وفرح لرؤية ما أسعدني من جديد،

وهكذا يا صغيري، إن الذكرى سلاح ذو حدين، ونجاتك منها تتوقف على الطريقة التي أمسكت بها هذا السلاح، هل وجهته ضدك؟ أم وجهته ضد مخاوفك؟ هذا هو السؤال .

- وأنت إلى ماذا ستوجهه من الآن فصاعدًا؟

- لا تقلق، سأوجهه نحو كل شيء يؤلمني، حتى أقضي عليه .

- إذن سراب، وبعد ردك على أسئلتي، هل تشعر بشيء جديد؟

- أفهم ما ترنو إليه، تريد القول إن لكل مشكلة حلًا، فقط إن نظرت لنفسك كشخصٍ آخر، ينظر إليك، يراقبك، ويقيّم أفعالك، ثم يأخذ بيدك نحو آخر النفق حيث الضوء، صحيح؟

- تمامًا، أحسنت .

- حسنًا، هل يمكنني أنا سؤالك الآن؟

- على راحتك .

- هل يمكنك إخباري بما يحدث، أي.. كيف جئتَ إلى هنا، وكيف جئت أنا؟ وكيف.. كيف دخلت عقلي؟!

ضحك وقام من مكانه، وسار بعيدًا ببطء وهو يقول لي :

- لا يجب أن يكون لكل شيء تفسير، اعتبرها فرصة جيدة لك للبدء من جديد، انسى ما حدث سابقًا واسطر حكاية جديدة لك،

ولك أن تعتبرني وعدك الذي وعدت نفسك به منذ كنت صغيرًا، وقد جاء لإنقاذك من نفسك، والفرصة التي جاءت لسراب الآخر تتمثل فيك، فأتم عملك أيها الفرصة .

رفعت صوتي أناديه :

- انتظر، لم أعرف اسمي بعد.

صاح:

- إن كنت تريد أن تبقى سرابًا فلتبقى، وإن رفضت ستعثر عليك نفسك، الخيار لك .

- حسنًا، كيف أذهب من هنا؟

- أغمض عينيك، هيّا

وداعًا يا من كنت سرابًا .

ابتسمت ورفعت يدي إليه أحييه :

- وداعًا .

****

- هل استيقظت؟

فتحت عيني ببطء أعتاد على ضوء الشمس الذي ينفذ من النافذة الكبيرة في الغرفة، نظرت لهذا الذي يحدثني، كان ممرضًا، أخبرته وأنا ما زلت أفكر فيما حدث :

- نعم، أشكرك .

قال :

- جئت أخبرك بخبر جيد، هناك من وجدك، يقول أنه صديقك، وهو ينتظرك في الخارج، هل أدخله لك؟

رددت بسرعة:

- نعم، نعم أدخله رجاءً .

هز رأسه وغادر، لحظات ودخل شخص ما بلهفة، ناديته عند وقوع عيني عليه :

- حمزة! هل هذا أنت؟

- أوه يا ويلي، هل تتذكرني؟ لقد أخبرني الطبيب أنك فقدت ذاكرتك .

- هذا صحيح، ولكنني تذكرت كل شيء الآن لا تقلق، فأنا بخير .

جلس بجانبي :

- حمدًا لله، سأذهب لأنادي الطبيب ليراك .

أمسكت يده أوقفه.

- لا انتظر، أخبرني أولًا كيف عثرت عليّ؟

- لا تذكرني، لقد ظللت كل تلك الأيام أبحث عنك في كل مكان بالقاهرة، ثم فكرت أنك ذهبت لمنزلك في الإسكندرية، فجئت إليك، ولكني لم أجدك هناك، ووجدت كل بطاقات هويتك، فخمنت أنك نسيتها، ثم ذهبت للشرطة ليساعدوني في إيجادك، فدلُّوني عليك هنا، أخبرني أنت ماذا حدث لك؟

- لا شيء، فقط كنت مستاءً فخرجت للسير قليلًا، وكنت شاردًا فلم ألحظ أنني أسير في منتصف الطريق.

- المهم أنك بخيرٍ الآن .

ابتسمت له، هذا ما حدث إذن .

مر نصف اليوم، جاءني الطبيب واطمأن على ذاكرتي، ثم أخبرني أنني يمكنني الخروج من المشفى الآن .

نزل حمزة لينهي حسابات علاجي وإقامتي، وبقيت أنا أتجهز للرحيل، ارتديت ملابسي التي أحضرها لي حمزة، وقفت أمام المرآة أُعَدِّل من وضع شعري، وعندما انتهيت تأملت أركان الغرفة التي شهدت على إحيائي من جديد .

أمسكت ورقة وقلم وجلست على الفراش أمارس هوايتي المفضلة، خططت بيدي على الورقة بسعادة من عثر على مراده وأخيرًا ..

" في المعارك يُدفع بالجنود أولًا،

ثم الفرسان،

ثم الرماة،

ثم النقباء،

وأخيرًا يأتي القائد،

ولولا الجنود لما تقدم أحدهم،

ولولا القائد لما تقدم الجنود .

وأنت،

لتكن جُندَك، وفرسانك،

ولو لزم الأمر كن الراية، وكن الجندي الذي يرفعها،

كن السيوف التي تهتز، والدماء التي تسيل،

كن الصيحات التي تُهدَر، والأقواس التي تشتد، والسهم الذي ينطلق، كن الرماح التي تُسَّمر،

كن معركتك،

ولا تنسى أن تصبح القائد ..

وفي النهاية،

كن انتصارك .

إياك والاستسلام،

لا تقاوم،

لا تدافع،

هاجِم !

حاول مرة،

ثم اتبعها بأخرى،

وإن هُزِمت فأعد ترتيب صفوفك،

ثم اذهب واهزم الهزيمة !

لا تُفَرِّط في حلمك،

فابتسامة وصولك تستحق كل عناء،

ونصيحتي ..

أحيانًا التعقل لا يفيد،

دعه جانبًا،

وكن في حلمك مجنونًا! "

****

سرت أوزع البسمات على كل من يقابلني، حتى قابلت من جعل قلبي يدق بهدوء، الفتاة التي قابلتها سابقًا ودار بيننا حوار قصير، وقفت أمامي فبادرتها :

- مساء الخير، كيف حالك؟

- بخير .

- تبدين وكأنك وجدتي شمسكِ .

ابتسمت بسمة صغيرة وقالت :

- نعم يبدو ذلك .

- لم تخبريني ما اسمك؟

- أنت قلته الآن .

تسائلت :

- ما هو؟

قالت :

- شمس .

- اسم جميل .

- أشكرك، أراك وقد عادت لك ذاكرتك، صحيح؟

- نعم، حتى أنني راحل الآن .

- حمدًا لله على سلامتك. إذن، فما هو اسمك؟

يا الله، اسمي؟ لقد نسيت أن أخبركم، نظرت لبطاقتي الشخصية بيدي أقرأ اسمي المدون عليها :

- أُدعى.. جَسور .

- جميل، لعلك أخذت نصيبك من اسمك .

ابتسمتُ ولم أرد، فقالت قبل أن تغادر :

- يوم سعيد، إلى اللقاء .

- إلى اللقاء... آنستي .

ثم اتسعت ابتسامتي وهمست بما لم يصل إليها :

- يبدو أنني وجدت شمسي أيضًا .

تمت.

كُتِبت بيد شخصٍ يحاول أن يُبصِر لمعان النجوم بين ظلمة السماء.
التاسع من مايو لعام ألفين وخمسة وعشرين.